دور التراث المادي واللامادي لمجتمع وادي سوف في تحديد ملامح الهوية الثقافية وتكاملها

أ/ التجاني مياطة – جامعة الوادي

الملخص:

ترتكز العادات والتقاليد على الموروث الثقافي الشعبي الذي ينبع من أصالة المجتمع وتمتد قيمته الإنسانية في أعماقه ويقتبس منها ذلك المجتمع المقومات السامية من الأسس المكونة للهويته الإسلامية بصفة عامة والعربية بصفة خاصة ومن ثم رفع شعار التقدم والحضارة حتى لا تتفسخ هويته الوطنية وتتدخل فيه العادات المستوردة بفعل رياح العولمة والتطور والتحضر الزائف لتنفيذ مشروع يعاكس العادات ويحارب التقاليد التي يحمل معاني السمو والرفعة المتأصلة في السلوك الذي يضمن الحماية من الوقوع في شباك الانحراف، ولقد تفطن المجتمع إلى مقومات هويته الثقافية بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة الممتدة من تعاليم القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونجد في مجتمع وادي سوف قدم المجهودات الكافية لحماية هويته بحسب القيم الاجتماعية التي توارثها الأبناء عن الأجداد وهي عادات وتقاليد يشترك فيها مع كافة أفراد الشعب الجزائري.

Abstract:

based customs and traditions, the cultural heritage of folk that stems from the authenticity of the community and extends the value of humanity in the depths and quotes them that society ingredient Commissioner of foundations consisting of Islamic identity in general, and particularly Arab and then raise the slogan of progress and civilization so as not to disintegrate national identity and interfere with the habits of the imported by the winds of globalization and development and urbanization false to implement the project goes against the customs and fighting traditions that carry the meaning Highness and greatness inherent in behavior that ensures protection from falling into the nets deviation , and I've noticed the community to the elements of cultural identity in general and Muslim in particular, extending from the teachings of the" Holy Quran" and the" Sunnah" of the Prophet ' Muhammad ', upon him , and we find in the Valley community will presented sufficient efforts to protect his identity , according to the social values inherited by children from their ancestral customs and traditions which shares with all members of the Algerian people .

مقدمة:

تعتبر وادي سوف ولاية غنية وثرية بالتراث الثقافي المتنوع في كافة التخصصات وهذا طابعا نتاج حضاري تكون على الأزمنة والعصور، إن هذا الزخم التراثي يجعل من وطننا فسيفاء متنوعة بصفة عامة وللمنطقة وادي سوف بصفة خاصة الذي يمثل جزءا لا يتجزأ من التراث الوطني والعربي الإسلامي.

1_ تعريف الثقافة:يكاد يكون مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم المستخدمة في علم الاجتماع تعقيدا، وربما كان هذا التعقيد مدعاة للاختلاف الواضح بين علماء الاجتماع ليس فقط في تحديد ماهية الثقافة أو طبيعتها ومكوناتها، بل وحتى تعريف المصطلح نفسه.

بحيث قام"من كروبر و كلايد كلكهون" في عام 1915م بحصر أكثر من 150 تعريفا مختلفا للثقافة[1].

إذا نظرنا إلى مفهوم الثقافة في المعاجم العربية نجد أنها أتت من الأصل اللغوي (ثقف) والتي تعني صار حاذقا وفطنا، وثقف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه،ثم نحتت كلمة الثقافة وقصد بها "العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها" وكما أن وضحت فإن الكتابات الأنثروبولوجية تستخدم الكلمة بمعنى واسع بحيث يشمل كل إنجازات العقل البشري بل وكل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو فكر وكذلك ما اكتسبه الإنسان من عادات وتقاليد وأساليب للسلوك وقيم تسود في المجتمع الذي نعيش فيه[2] . ارتبط مفهوم الثقافة وتميز بصورة واضحة بتعريف "ادوارد تايلور" في كتابه الثقافة البدائية بحيث يعتبر هذا التعريف من أقدم التعريفات وأشملها[3].

حيث عرفها تايلور على أنها "ذلك الكل المركب من المعرفة والعقائد والفن والقانون والأخلاق والقيم والأعراف والقدرات التي يستطيع الفرد أن يكتسبها في المجتمع باعتباره عضوا فيه."

بحيث جاء تعريف تايلور للثقافة بمثابة التمييز الشامل لهذا المفهوم حتى الوقت الحاضر، والذي وضح فيه مدى قدرة الفرد أو الجنس البشري عامة على امتلاك خصائص وسمات ثقافية تميزه عن المخلوقات الأخرى في المجتمع أو الحياة الطبيعية، فالإنسان هو المخلوق الذي يستطيع أن يكتسب قدرات وقيم وأخلاقيات ومثل وقوانين ،ويستطيع أن ينقلها بعد ذلك إلى أبناء جيله في مراحل لاحقة، وهذا ما يميز الثقافة على أنها نوع من التراث الاجتماعي كما أن الإنسان يضع الآلات والأدوات والتكنولوجيا التي تجعله قادرا على السيطرة على البيئة المادية الخارجية[4].

وبالرغم من أهمية تعريف تايلور السابق ذو الطابع الأنثروبولوجي والذي على بساطته نستطيع أن نستخلص منه العناصر الهامة التي تميز الثقافة وهي أنها كل مركب وهذا تكوين أو تأليف من عدد من المكونات التي قد تختلف في طبيعتها ولكنها تندمج معا في وحدة عضوية متماسكة ومتكاملة كما أن الثقافة أوسع وأشمل من مجرد إنتاج أو إبداع العلوم والفنون والمعارف لأن الثقافة هي حصيلة النشاط الإنساني في مجتمع من

المجتمعات ومن صم فإن لكل مجتمع ثقافة خاصة كما أن الثقافة تتميز وتستقل عن الأشخاص الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية لأن عناصر الثقافة كلها مكتسبة[5].

2_ مميزات الثقافة:

- ✓ أن الثقافة هي نتاج بشري خالص، وهي تميز الإنسان عن الحيوان، فنماذج معيشة الحيوان ثابتة لا تتغير لأنها تعتمد على مجرد السلوك الغريزي بعكس نماذج معيشة الإنسان التي تتطور بإستمرار.
- ✓ إن الثقافة مكتسبة أي أن الفرد لا يولد بها يصل إلى اختراعها بالعقل أو يكتسبها من المجتمع الذي يعيش فيه، أو المجتمعات التي ينفتح عليها.
- ✓ أنها قابلة للتغيير والتعديل وليست جامدة وتتغير الثقافة بما تضفيه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وعادات وأنماط سلوك أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب أو الأدوات التي لم تعد تتفق مع ظروف حياته الجديدة[6].
- ✓ بما أن الثقافة تتغير فيمكن اعتبارها عملية حيث أن العملية هي أي ظاهرة خلال فترة من الزمن ونظرتنا للثقافة على أنها عملية يعني أن هناك مدخلات تشمل كل ما يريده المجتمع أن يضمنه في ثقافته من عناصر مادية ومعنوية وهناك مخرجات تشمل ما يتم استيعابه والتفاعل معه من تلك العناصر لينتج لنا ثقافة خاصة بالمجتمع.
- ✓ إن الثقافة تنتقل من جيل إلى آخر على شكل نظم وتقاليد وعادات وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف كما أنها تنتقل من وسط اجتماعي إلى آخر[7].
- ✓ تمتاز برغم تغيرها أيضا بالتكامل إذ تظهر كل الثقافات ميلا نحو التكامل بمعنى أنها تتخذ وتلتحم لتكون كلا متكاملا منسجما وتميل عناصرها المختلفة من عادات وطرائق شعبية ونظم وتتعرض لضبط يقودها نحو التكامل والاتساق مع بعضها الآخر[8].

3_ أنواع الثقافة: للثقافة نوعان هما مادية و اللامادية

أ- الثقافة المادية: والمقصود بها كل الأشياء التي صنعها الإنسان أو يستخدمها للتوافق مع البيئة وقد تتدرج عنه الأشياء من الأواني الفخارية التي استخدمها الإنسان البدائي إلى مركبة الفضاء في البلاد الأكثر تقدما من الناحية التكنولوجية[9].

أي أن الثقافة المادية هي كل ما يستطيع أن يلمسه الإنسان من عناصر وأشياء التي تخضع دائما لعامل التغير المستمر والتي سعى الإنسان لاكتسابها أو اختلافها من أجل إشباع حاجاته الأساسية وتتمثل الثقافة المادية في العمارة بشكل عام كالمواقع الآثرية و المدن العتيقة والمتاحف الافتراضية أو المتاحف التي بلا حدود خاصة والمباني والمنشآت ومختلف وسائل النقل وأيضا الفنون والآداب وهي ما يطلق عليها بالتراث الأدبي والفني وتتمثل في الملابس والحلي والآلات الموسيقية والمخطوطات

والصناعات الحرفية اليدوية.....الخ[10]. وأن أهم ما يميز الثقافة المادية هو أن مكوناتها رغم تنوعها واختلافها تختص بما لها من شكل أو مظهر فيزيقي أو وجود ملموس ومحسوس كمنتج من صنع الإنسان بغض النظر عن حجمها أو شكلها أو استخدامها أو الهدف منها وهذا هو ما يجعلها تشكل الجانب المادي للثقافة[11].

ب- الثقافة اللامادية: يشتمل الجانب اللامادي للثقافة على كل ما يبتكره الإنسان ويستخدمه في تفسير سلوكه وأفعاله وتوجيهها ولكن بشرط أن لاتخرج عن نطاق عقله أو تفكيره ولذلك فهي تمثل جميع السمات الثقافية غير الملموسة كالمهارات الفنية والمعايير والمعتقدات والاتجاهات واللغة وغير ذلك مما تناقله أفراد المجتمع من جيل إلى آخر.

وبالتالي فعناصر القيم والمعتقدات والعادات والأفعال والعرف والقانون والنظم الاجتماعية والرموز والأسطورة والحكاية والأمثال تحمل جوانب لامادية للثقافة وبالتالي فهي تعبر عن المظهر الفكري والأيديولوجي للتفاعل الإنساني [12].

وعليه فالثقافة اللامادية تشمل دائما أشياء غير واضحة وليست ملموسة وكنها تلعب دورا هاما في سلوكنا وحياتنا اليومية مثل الدور الذي تلعبه العادات والتقاليد الأعراف والقيم وغيرها[13] .

و للثقافة اللامادية نوعان هما: قولي وفعلي

- القولي: يتمثل في الحكم و الأمثال و الأغنيات والحكايات والنكت والألغاز والدعوات والنداءات و أسماء المحلات وما يكتب من كلمات وجمل وتعليقات على المناديل والثياب وجدران البيوت من الداخل وعلى الأبواب وشواهد القبور وغير ذلك.
- أما الفعلي: فيتضمن الاحتفالات والأعياد والمناسبات من زواج ووفاة وولادة والرقص والألعاب والزيارات وأزياء الملابس وأثاث البيت وزينته[14].

مهما تكن هناك ثقافة مادية ولامادية فهما وجهان لعملة واحدة وهي ثقافة المجتمع حيث لا يمكن الفصل بينهما فكل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر ويجب ان يكون هناك انسجام تام بين جانبي ونوعي الثقافة بشقيها وذلك من أجل ثبات ورسوخ ودوام ثقافة المجتمع.

4_ ثقافة المجتمع السوفي:

يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى لأن له بناء معياريا يعكس القيم لكل ما تحتويه من معايير وقواعد سلوكية ولكل مجتمع إنساني ثقافة معينة تحدد رؤيته لما يحيط به من أطر مادية ومعنوية.

ومع أن لكل مجتمع ثقافة خاصة به ينفرد بها عن غيره من الشعوب إلا أن هناك تشابه بين المجتمعات في بعض العناصر الثقافية.

كما يتعدد ويتنوع التراث لدى مجتمع وادي وهو كغيره يتقسم إلى نوعين مادي وغير مادي (معنوي)، وهو بمثابة الوجه الحي للفنون في العمران والصناعات التقليدية والشعر والطبخ واللباس التقليدي والغناء والرقصات الشعبية تراث يعود إلى الجذور والتاريخ والحضارة الأولى بالمنطقة.

4_1_ التراث المادي: ويتمثل في عدة جوانب نذكر منها:

أ- العمارة: للمنطقة وادي سوف نمط معماري مميز أملته الظروف الطبيعة أحيانا وثقافة أهل المنطقة أحيانا أخرى ونستطيع أن نقول ان الطابع المعماري هو امتداد للطابع العربي الإسلامي فكل العناصر المعمارية التي يستعملها سكان وادي سوف هي عناصر عربية إسلامية نذكر منها الأعمدة والأقواس والقباب والتيجان كذلك مساحة البيت والصحن المطل على الهواء.

وتعتبر القبة في وادي سوف عنصرا معماريا أساسيا ورمزا ثقافيا مميزا أملته الظروف الطبيعية والجذور التاريخية والقبة هي شكل نصف دائري يعلو البناء له العديد من الوظائف أهمها[15].

- نشر وتوزيع الأتربة حتى لا تتراكم على السطح لأن طبيعة المنطقة رملية وتشهد العديد من العواصف.
- توزيع وتكسير وعكس أشعة الشمس الحارة حتى لا تتمركز في مساحة واحدة.
- إضافة فضاء آخر في البيت من الداخل مما يسمح بكمية إضافية من التهوية.

وقد لفت هذا الطابع المعماري المميز الكاتبة الألمانية إيزابيل ايبر هاردت* فأطلقت على المدينة إسم مدينة "الألف قبة وقبة" وذلك في حدود سنة 1900م و اليوم وقد تطورت المدينة ووسائل الوقاية والتبريد إلا أن القبة مازالت تعلو البيوت حفاظا عليها كطابع معماري خاص بالمنطقة .

ب- المدن العتيقة والزوايا والمساجد:

ب_1_ المدن العتيقة: مدينة قمار العتيقة التي حافظت على طابعها المعماري الأصيل منذ القدم وبطريقة منسجمة بأزقتها وأسواقها تعتبر تحفة معمارية هامة وأزقتها الضيقة تمنح الراجل كثيرا من الظل والبرودة في أيام الصيف.

وكذلك توجد مناطق أخرى نذكر منها المدينة العتيقة لكوينين وقرية واد الترك وقرية الخبي وقرية الكتف بضواحي اميه ونسه التي مازالت مبنية حسب المواصفات المعمارية للسكان وادي سوف منذ قرون كما أن المنازل التقليدية بهذه المنطقة مازالت تحافظ على جمالها ورونقها رغم مرور العقود والأزمنة.[16]

ب_2_ الزوايا: لقد أثارت الزوايا في فترات حالكة من تاريخ الأمة شموع الأمل وأنوار الإيمان وطرق الهدى في حياة الناس الحيارى بالتعليم القرآني والإرشاد الديني والنصح وإصلاح ذات البين كما كانت دروعا واقية للمجتمع في عقود تعرضت فيها شعوبنا لغزو ثقافي ومسخ حضاريا رهيبا واهم الزوايا المنتشرة بوادي سوف هي[17] :

- الزاوية التجانية: ويوجد لها مركزين بقمار وتغزوت وهي تنتسب إلى مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم الحسني الملقب بالتجاني، وهو يعتبر مركز إشعاع علمي وروحي للعديد من أتباع هذه الطريقة بنيت الزاوية في القرن الثامن عشرة وتعد مركز للتصوف بالوادي خلال عقود كبيرة كما تساهم في الحفاظ على الشعائر الدينية لحد الآن.
- زاوية سيدي سالم: هذه الزاوية معروفة بمنارة مسجدها كمعلم تاريخي ومعماري وهي زاوية تابعة للطريقة الرحمانية وهي طريقة صوفية تفرعت عن الطريقة الخلوتية بمصر وتنتسب إلى مؤسسها الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان .
- الزاوية القادرية:تتواجد هذه الزاوية بوسط سوق مدينة الوادي تمتاز بمنارة عالية تمكن من إلقاء نظرة شاملة لمدينة الوادي كما لها عدة مراكز بالبياضة والرباح والدبيلة وقمار تعمل على تدريس القرآن الكريم والحفاظ على أصول الدين مؤسسها الشيخ العلامة الهاشمي بن إبراهيم بن أحمد، تنتسب إلى الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني البغدادي[18].

ب_3_ المساجد: وهي عديدة وكثيرة بمدينة الوادي نذكر منها على النحو التالي:

- مسجد إبراهيم الخليل: يقع المسجد في بلدة عمر بحاسي خليفة يمثل معلما تاريخيا هاما في تاريخ الثورة بمنطقة سوف فكل زاوية من المسجد تعبر عن مدى ظلم الاستعمار ولا يزال مكان العلم الفرنسي واضحا فوق صومعته الصغيرة[19].
- مسجد العدواني: يقع مسجد الشيخ محمد العدواني ببلدة الزقم (بلدية حساني عبد الكريم) التي تبعد عن مدينة الوادي من الناحية الشرقية بحوالي 10 كلم، كان المسجد بمثابة خلية هامة للنشاطات جمعية العلماء المسلمين وقلعة للتعليم القرآني، ظم ثلة من العلماء الذين درسوا الفقه والتفسير أشهرهم: معمري الطاهر،محظي محمد وغولي احمد ومحمد الساسي معامير واحمودة إبراهيم وغيرهم واليوم أصبح معلم أصري هام.
- المسجد العتيق بالوادي: "جامع سيدي مسعود" يقع في قلب سوق مدينة الوادي ساهم هذا المسجد العريق في التعليم القرآني والتوجيه الديني لأهل المنطقة حيث درس به الفقه والحديث والسيرة وغيرها وأسست خارج المسجد مدرسة للتعليم مبادئ العلوم الإسلامية[20].

ت- المتاحف:

ت_1_ متحف الوادي: الذي يقع وسط المدينة وقد أنشأ خلال الفترة الاستعمارية سنة1960 وبعد الاستقلال أصبح تابعا للبلدية الوادي التي تنازلت عنه لفائدة وزارة الاتصال والثقافة أواخر سنة 1996م، يضم المتحف بعض العينات المختلفة من العصور الحجرية كرؤوس السهام والشفرات والفؤوس الحجرية والمسننات والمكاشط كذا الصوان المنحوت كما بعض الآثار للفترة التاريخ القديم وتتابع تأثيرات الدول والإمبراطوريات المتوسطية حيث تشهد على ذلك النقود التي وجدت في مختلف أماكن سوف وريغ وهي عبارة عن عملات بونية ورومانية وإسلامية وفرنسية وتوجد به بعض الحيوانات المحنطة المنقرضة وأصداف الرخويات وصور فوتوغرافية على كامل جدران المتحف تعكس تنوع التراث المادي كالقصور والمعالم الأثرية وكذا الحياة اليومية لسكان وكذلك مجموعة من المخطوطات تحتوي على علوم شرعية وتاريخية مهمة وغيرها[21].

ت_2_ متحف مدينة قمار: وهو متحف مخصص للفنون الشعبية وبعض المخلفات التاريخية.

ث- فنون وادي سوف:

1_ الفنون التقليدية: وتظهر جلية في الصناعة التقليدية كصناعة الأواني الفخارية والسعفية والنسيج خاصة الزربية السوفية بزخارفها الشهيرة وشكلها المتميز وبعض الألبسة كالبرنوس والقشبية والوسائد والأغطية وغيرها، وكذلك صناعة بعض الآلات الموسيقية التقليدية مثل الطبلة التي تصنع بجلد الماعز حيث تجلد به قصعة من اللوح متوسطة الحجم وآلة الفرح"الدليل"حيث تتكون من القصعة وجلد الجمل والمضرب للضرب عليه ويستعمل للإعلان عن بداية العرس أو الختان[22] . وكذلك صناعة الألبسة التقليدية مثل:

- البرانس: جمع برنوس منها الرفيع والوضيع والمتوسط وتكون مصنوعة من الصوف أو الوبر و يرتديه الرجال.
- الحايك: جمع حائك ويكون مصنوع من الحرير والصوف.
- الحولي: وهو أنواع منها حولي الفراش وتكون كلها من الصوف الأبيض معلما بألوان من الصوف المصبوغ.
- حولي القطنية: مصنوع من الصوف والقطن ويكون للرجال والنساء ولكن النساء يصبغنه بالحمرة أو السواد.
- العفافين: جمع عفان وهو عبارة عن حذاء مصنوع من الوبر أو الصوف وتغلق قاعدته بالجلد لكي لا يتآكل بالاحتكاك[23] .

2_ الفنون التشكيلية: وأقدمها النقش والحفر حيث عرفت منطقة سوف بالزخرفة على الجبس وقدمت أروع أعمال النقش حتى خارج الولاية كما أن هناك فنون تطبيقية والرسم الزيتي والخط العربي وفن النسخ[24].

4_2_التراث اللامادي: ويتمثل في :

أ_ العادات والتقاليد: تميزت وادي سوف بعاداتها العربية الملتزمة بالأخلاق والقيم الدينية سواء في الخطوبة أو الزواج أو المآتم و الموالد و الأعياد والمناسبات.

- ☒ الأعياد: فضلا عن عيد الفطر وعيد الأضحى فقد كان لأهل سوف مناسبات أخرى للاحتفال والفرح والصدقة منها[25] :

_ عيد الخريف: ويصادف اليوم الأول من الخريف ويشترك فيه سكان الحي بذبح ناقة أو جمل.

_عيد الربيع: يدعي تقطيوط ويصادف منتصف الربيع وتعد فيه أكلة الكسرة بالدهان .

_عيد رجب: ليلة سبع وعشرين رجب ذكرى الإسراء والمعراج .

_ عيد الشعبانية: في منتصف شهر شعبان .

_عيد عاشوراء: عشرة محرم يصام وتقام فيه احتفالات الحزن عن مقتل سيدنا الحسين.

_عيد القدري: عشية ليلة سبع وعشرون رمضان وتخصص لصدقات.

_وقوف العرجون: ويصادف الأيام الأوائل من الصيف حيث يكتمل العرجون ويتوقف عن النمو.

- ☒ الختان: لسكان وادي سوف طقوس ومراسيم يتم من خلالها الاحتفال بالختان تميزها عن مناطق أخرى حيث يقام حفل الختان بطريقة تقليدية إذ تقوم النسوة بترديد أغاني من التراث خاصة بهذه المناسبة.

وفيها يتناول الغناء على الطفل المختون وكذلك نفسية أم الطفل وفيه تقدم الهدايا له ومن بين هذه الأغاني على سبيل المثال: سباقة ربي والصلاة على النبي "صلى الله عليه وسلم" وغيرها.

- ☒ مراسيم الزواج في منطقة وادي سوف: مراسيم الزواج بالوادي ماتزال تحتفظ بطقوس تراثية خاصة لدى أهالي الأرياف وعند البدو وهو ما جعل الأفراح والأعراس عند مجتمع سوف لها نكهة خاصة :

1- طريقة اختيار العروس (الخطبة): لم يكن اختيار العروس في الزمن الغابر كزمننا هذا الذي تتعدد فيه أماكن ومواقع أوقات اللقاء بين الطرفين كان هذين الآخرين آنذاك محدودين جدا مقارنة بما نحن

عليه الآن خصوصا في ظل تعدد وتنوع وسائل وطرق الاتصال فاختيار العروس كان يتم بثلاث طرق :

- طريقة التسمية: وهذا المصطلح أقرب إليه إلى الاصطلاح العام ويأتي بمعنى أن البنت لما تزال في مهدها تسميها أو تخطبها القريبة أو الجارة لابنها وعندما يكبر المعنيين يتم عقد القران.
- طريقة الخطوبة من قبل الوالدين: حيث أنه عندما يصبح لإحدى الأسر مثلا ابن في سن الزواج تشرع والدته في البحث له عن عروس وأهل العريس عادة ما يبحثون كما يقال في المصطلح السوفي "بنت الأصل" بغض النظر عن جمالها ومالها كما انه لايحق للعريس النظر لعروسه عند الخطبة إلا نادرا فالغالب هو أن يراها يوم الزفاف.
- عن طريق المحفل: والذي يجتمع فيه فتيان وفتيات الحي حيث تؤدى فيه رقصة النخ ومن خلالها يختار الشاب خطيبة له التي أعجبته واستحسنها [26].

2- يوم الفرح: بعد الاتفاق على موعد الزواج يقوم أهل العريس يوم الجمعة باعتباره يوما مباركا في معتقداتنا يصنع ما يسمى به "فرح"* يستعمل الفرح في الإعلان عن بداية العرس ويبقى الضرب عليه مستمرا طيلة أيام الفرح دون انقطاع من الفجر إلى منتصف الليل وأصل هذه الآلة من ليبيا ومازال استعمالها هناك إلى اليوم وفي القديم كان يستعمل الدليل للإخبار عن العدو بواسطة الضرب عليه.

3- يوم العطرية: والذي يصادف يوم السبت يقوم أهل العريس بأخذ العطرية لأهل العروس وتحتوي على مجموعة من أدوات الزينة وأبرزها على الإطلاق الحناء إضافة للحلي والتي غالبا ما تكون من الفضة لندرة الذهب آنذاك مثل الخلخال و المشرف وبعض الألبسة التي في مقدمتها اللباس التقليدي السوفي مثل الحولي،ومن جهة أخرى وفي مساء هذا اليوم تقوم النسوة بوضع الحنة للعروس.

4- يوم الزفاف: وهو يوم العقد وعادة ما يكون يوم الأحد بعد صلاة العصر في المسجد أو المنزل وفي نفس الوقت يشرع أهل العروس في تحضيرها وتزيينها تلبس قميصا داخليا من الحرير يكون أبيض اللون بأكمام واسعة من الأسفل وضيقة من الأعلى ثم ترتدي فوقه فستانا فضفاضا، وتضع الكحل في عينيها والسواك في فمها وبعد إعداد العروس تفرش ساحة المنزل للقيام بما يسمى بالفتول: وهو عبارة عن عود من السرغين يدفن تحت الجمر "المازوزي" ثم يهرس ويخلط بالعطر ويدهن به شعر العروس وبعد ذلك تقوم إمرأتان من أقرباء العروس بلف خيوط حمراء وخضراء على خصلة من خصلات شعرها مصحوبا ذلك مع الغناء والزغاريد من طرف النساء الأخريات .

وبعد صلاة المغرب يأتي أهل العريس لأخذ عروسهم إلى بيت زوجها وتزف على الهودج (الجحفة) رفقة إحدى صديقاتها[27]. وفي صبيحة اليوم الموالي تلبس العروس حولي أحمر وتضع الحلي وتزين نفسها.

أما بالنسبة للعريس فهو الأخر يرتدي عباءة بيضاء (قندورة) وقميصا وبرنوسا بالإضافة إلى العمامة وكلها ذات لون أبيض ويصل العريس بعد تناول وجبة العشاء المماثلة لوجبة العروس رفقة أحد أصدقائه ينتظرون وصول العروس.

5- يومي الحزام والكبوب: بعد مرور أربعة أيام تحزم العروس وترقص وسط مجموعة من النساء اللواتي يؤدين الأغنية التراثية السوفية المعروفة مثل أغنية حولي جلوالي، بيا غرام .....الخ.

وفي اليوم الموالي تذهب العروس إلى بيت أهلها لتسلم عليهم وتسمى هذه العادة بالكبوب أي أن العروس تكب بوجهها لتقبل قدمي والديها[28].

- التراث الغنائي والموسيقى السوفية: إن الشعر الشعبي حدث سماعي مثقل بالصراع الذي يتجسد يوميا بأسراره ومقاصده في ميدان الحياة الاجتماعية والدينية وله صدى في الروح والذاكرة.

والأغنية الشعبية تحمل الأصالة عبر التاريخ الطويل وتعبر عن روح داخل المجتمع السوفي وطموحاته وتطلعاته وهي أنواع : - الأغنية الاجتماعية: وفيها يتناول المواضيع الاجتماعية المستمدة من الأوضاع السائدة والمعاشة، ويصور لدينا أحد الشعراء تعبه في البحث عن العمل بعدما مسه الفقر واضطره مكره إلى الرحيل فيقول:

يا رب بركه من الـــــدرك يزينا ----- سرح سواقي الخـــــير بيها اغنينا
الـــــدرك والهـــــــانا ----- أما الزلط يتحسب بشـــــانه
كان من لبس عكوا على لباسه ----- وكان من تعرى عيب من يرعى له
يا سعد من دفنوه في الجبـــانة ----- ساتر عيوبه قبر فوسط مدينـــــة

- أغاني الأعراس والأفراح: وفيها يتناول عدة مواضيع منها الغناء على العريس والعروس وكذلك أغاني الحب وغيرها مثل أغنية غرود عالية موضوعها يدور حول قصة حزينة وقعت في الغرود العالية حيث أغلب مفرادتها من التراث السوفي العريق فهي صعبة الفهم وكلماتها لم تعد متداولة[29].

ومن بعض أبيات هذه القصيدة نذكر:

غرود عـــــــالية والموت فيها جتني ------ لا صبت ناسي ولا عرب زارتـــــني
أحلى تمت كي سرت لله والخليقة اتلمت ------ الأرض الصحيحة كيف عني صمت

- المدائح الدينية: وهي عبارة عن قصائد شعرية في الرسول عليه الصلاة والسلام وبعض الأولياء الصالحين يؤديها مجموعة من إتباع الزوايا المنتشرة في المنطقة حيث يشيدون فيها بمناقب وصفات الرسول الكريم وهي تكثر في المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف وليلة القدر المباركة وغيرها من المناسبات الأخرى مثل ما قيل في تعظيم الذات الإلهية:

باسم الله العظيم جل جلاله ------ ليس مثل شبيه في ملكه واحد

قادر فاعل مريد كل امساله ------ رافع سبع طباق من غير عمد

وما قيل في التشوق لزيارة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم:

قلبي شور شاهي نعزم ------ قاصد بيت الله

لمقام الرســـــول ندور ------ زمزم نشرب ماه[30]

- الحكايات والألغاز والأمثال الشعبية: نقلا عن الدكتور حسان الجيلاني في مقال له في مجلة الهلال المصرية "صورة من التراث الجزائري" وتمثلت في نموذج اسمه عمي العيد المداح حيث كتب (بأن هناك معالم في الوطن الجزائري ظلت تدافع عن الشخصية والثقافة العربية الإسلامية وهي بمثابة الحصون تكسرت على جدرانها في كل محاولة لاستعمار للمسخ والتشويه ومن ذلك ذكر المخزوم التراثي العربي الذي يتسمح به الموروث الشعبي الجزائري...فبدا بوادي سوف حيث كان لها رصيدا هائلا من التراث الشعبي من حكايات وأساطير وألغاز وخرافات)[31].

فالنموذج الذي ذكره الدكتور كان شيخا يحكي حكايات شعبية جميلة في قلب سوق الوادي حيث نقل إعجابه بأسلوب شيق ورائع.

وقد ذكرت الأستاذة ثريا التجاني في دراستها عدة مميزات للقصة الشعبية السوفية وهي كالتالي:

تتمتع القصة الشعبية السوفية بأسلوب سلسي وجذاب تمزج هذه القصة الشعبية بين الواقع والخيال وتعمل دائما على مناصرة الخير ومحاربة الشر كما تتضامن النشر المسجوع وتجسد الحيوانات وغيرها من الكائنات الأخرى[32].

كما تطرح عدة ألغاز وأمثال وحكما للصغار والكبار وفيها طابع الترفيه مع خلق نوع من التنافس والتباري ومن هذه الألغاز مثلا : أبيض طليس ما فيه عظام ولا ريش وحله هو الحليب، وقوله: بلادنا الخضراء وسكانها عبيد تتكسر بالقدرة وتتحل بالحديد والحل هو الدلاع[33].

ومن الأمثال والحكم المتداولة بمنطقة وادي سوف نذكر: خدعتني يا الصغر وانت ماشي --- ولزيتني للعبر وما تقطاشي ، ويقال لمن ضيع شبابه ولم يدرك نفسه إلى حين كبر.

- الأكلات الشعبية: فن الطبخ في وادي سوف من أصل بدوي نسبة للسكان الأوائل غير أن هناك اليوم مزيجا بالطبخ التقليدي والعصري كما أنه متعدد المذاق تستعمل التوابل فيه بصفة مميزة وأهم هذه المأكولات هي:

- المطابيق: معروفة بالوادي وهي خبز محشو بخليط من الطماطم والفلفل والبصل ويستعمل فيها الشحم في بعض الأحيان.
- الكسكسي: وله عدة أصناف منها المسقى والسفة والمفور والمقلى والمحكوك.
- الدوبارة: هو ذو شعبية كبيرة بين أوساط المجتمع السوفي متكونة من الحمص الطازج مضافا له بعض التوابل وزيت الزيتون.

- الشخشوخة: وهي طبق متكون من رقائق رفيعة من (السميد،فرينة) مقطعة إلى قطع صغيرة ممزوجة بالمرق مزينة بالبيض واللحوم والبطاطا المحمرة.
- كسرة الملة: وهي عبارة عن خبز قد يكون محشو بخليط من الطماطم والفلفل والبصل ويستعمل معها الشحم وقد يكون غير محشو وتطهى على الجمر في الرمل وتكون في مكان نظيف من الرمال النقية[34].

- الألعاب الشعبية: لو أردنا تعداد الألعاب الشعبية بوادي سوف فالأكيد أننا لا نستطيع حصرها ولذلك نقتصر على الألعاب المشهورة:

أ- لعبة القوس: وهي لعبة شهيرة في فصل الخريف عند منتصف النهار وتجرى بالهواء الطلق خارج العمران بين فريقين من الرجال وتصنع الكرة من فرق القماش الملفوفة بالصوف أما القوس من جريد النخيل ولهذه اللعبة قواعد هامة يمكن تطويرها لتنافس الرياضات الحديثة[35].

ب-الخربقة: وهي لعبة فكرية تلعب في كل وقت وكثيرا ما نجدها في جلسات الأحياء أمام الدكاكين وهي شبيهة بالشطرنج وهناك ألعاب أخرى مشابهة لها مثل لخطيوى ولحويرة والسيق...

ت-السرسيبة: وهي طريقة لتزحلق على الرمل واليوم أصبح يخصص لها أيام تنظم فيها مسابقات.

ث-الدرنجح: الدرجيحة تلعب في الغوط بربط جريدتين لنخلتين متقاربتين فتشكل أرجوحة يتداول عليها الشباب.

ج- شايب عاشوراء: وهي مهرجان شعبي يقام في العشر الأوائل من شهر محرم وأشهر ما يميزه لعبة هذه اللعبة وهي نوع من المسرح الفكاهي الشعبي المتضمن عدة انتقتدات لاذعة وألعاب وحركات مرفوقة بالغناء النسوي.

وهناك ألعب أخرى منها سباقات تسلق النخيل وصيد الطيور وسباق الحمير والمشاية والشويكة والغطيسة...

- الرقصات الشعبية لمنطقة وادي سوف: يمكن تصنيف الرقصات التقليدية الشعبية ضمن الرقصات الاحتفالية المعروفة في وادي سوف حيث يقوم بها السكان لتعبير عن فرحهم في مختلف المناسبات والاحتفالات وهناك عدة رقصات تتميز بها منطقة وادي سوف وهي:

أ- رقصة النخ: وهي عبارة عن استعراض تقوم به الفتيات حيث يجلسن على ركبهن ويكن مزينات بالحولي ويحركن شعورهن بطريقة منتظمة.

ب- رقصة الزقايري: وهي عبارة عن استعراض للرجال حيث يقوموا بعدة حركات بالأرجل مع نغمات الزرنة.

ت- رقصة الخيل: عادة ما يقوم بهذه الرقصة الفارس وهو يركب حصانه مرفوقا بنغمات الزرنة ونشير هنا أن الفرسان يدربون أحصنتهم بشكل جيد حيث يقومون بعدها بأداء هاته الرقصات في المناسبات الاحتفالية كالزواج والمهرجانات.

ث- رقصة بابا مرزوق: وفيها يقوم مجموعة من الرجال بالعزف على آلة القرقابو و الطبل مشكلين بنغماته الإيقاعية الخفيفة مجموعة من الرقصات والحركات المميزة لهذا النوع كما يرتدي أعضاء فرقة بابا مرزوق لباس مميز يتكون من جبة بيضاء وحزام أسود بالإضافة إلى قبعات مزينة بالأبيض و الأسود وتكون هذه الرقصة في التظاهرة الموسمية سيدي مرزوق[36].

الخاتمة: إن الزخم الحضاري والثقافي المتكون من العادات والتقاليد الأصيلة كان لها الدور الأساسي في الحفاظ على الانجازات الخاصة بالمجتمع السوفي وهو موروث عديد ومتنوع ساهم في تثبيت الهوية الوطنية بكل أبعادها ووفق منهج محافظ وملتزم متماشيا مع مقاييس التحضر الفعلي ويقف في وجه ما يسمى بالعولمة الثقافية من الانتشار والتعامل معها لابد أن يقوم على أساس القوة الاقتصادية والاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي وترسيخ قواعد العمل الإسلامي المشترك على مستوياته المتعددة من أجل الدفع بالتعاون بين المجموعات ويجعل هذا الجزء من الوطن العزيز مجالا خصبا للعديد من الدراسات في هذا المجال وبشكل موسع مما يضفي بنا ذلك لتوثيق هذا المخزون الثقافي للمنطقة باعتباره جزء من التراث الوطني الجزائري.

الهوامش

[1] -فاروق أحمد مصطفى،محمد عباس ابراهيم،الأنثروبولوجيا الثقافية،دار المعرفة الجامعية الإسكندرية،2005،ص 45.

[2] - نفسه،ص 45.

[3] - عبد الله محمد عبد الرحمان، السيد رشاد غنيم، مدخل علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع،الاسكندرية، 2008،ص 270.

[4] - نفسه ، ص 271.

[5] - فاروق أحمد مصطفى، محمد عباس ابراهيم، مرجع سابق،ص46.

[6] - محمود حسن اسماعيل ، مناهج البحث في اعلام الطفل ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1995،ص32.

[7] - نفسه، ص33.

[8]- نفسه، ص33.
[9] - مصطفى عمر حمادة، علم الإنسان مدخل الدراسة للمجتمع والثقافة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2007 ،ص 205.
[10] - السيد عبد العاطي السيد، المجتمع والثقافة الشخصية دراسة في علم الإجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،2003، ص14.
[11] - زويش آسيا و آخرون، التراث الثقافي غير المادي بمنطقة الطارف،جمع ودراسة مذكرة لنيل شهادة الليسانس ،المركز الجامعي بالطارف، معهد اللغة العربية وآدابها، قسم الأدب العربي،2007-2008،ص 06.
[12] - نفسه، ص 15.
[13] - عبد الله محمد عبد الرحمان، السيد رشاد غنيم، مرجع سابق،ص282.
[14] - فاروق أحمد مصطفى، محمد عباس ابراهيم، مرجع سابق،ص 46.
[15]- زويش آسيا، مرجع سابق، ص-ص 09-10.
[*] - ازابيل ابرهاردت: كاتبة ألمانية وهي روسية الأصل ولدت سنة 1877 جاءت إلى الجزائر "عنابة"، 1997 وصلت إلى الوادي يوم 04 أوت 1899 .
[16] - مذكرة نهاية القرن العشرين "الماضي ،الحاضر،المستقبل" فكرة واعداد المطبعة العصرية بالوادي،الوادي،1999،ص 100.
[17] - مديرية السياحة لولاية الوادي،الوادي بلد النور، قرص مضغوط، 2009.
[18] - السعيد ديدي، وادي سوف كنوز من الجزائر، ج1، نظرة عامة حول وادي سوف، دار الثقافة لولاية الوادي،ص29.
[19]- نفسه،ص 30.
[20] - مفكرة نهاية القرن العشرين،مرجع سابق، 202.
[21] - نفسه،ص 121.
[22] - مصلحة التراث الثقافي ،دراسة حول التراث الثقافي لوادي سوف، مديرية الثقافة لولاية الوادي، 2008، ص 16.
[23] - مفكرة نهاية القرن العشرين، مرجع سابق، ص 105.
[24] - مصلحة التراث الثقافي ، مرجع سابق، ص25.
[25] - مفكرة نهاية القرن العشرين، مرجع سابق،ص105.

[26]- السعيد ديدي، مرجع سابق ،ص 52.
[*] - الفرح: هي آلة موسيقية ليبية الأصل .
[27] - وهيبة طيطي،برنامج من أفراح الوادي، بثته إذاعة سوف الجهوية ،صيف، 2004 على الساعة 15:10.
[28] - نفسه.
[29] - ابراهيم جلول، برنامج قعدة زمان، بثته إذاعة سوف الجهوية،صيف 2007.
[30] - مديرية الثقافة لولاية الوادي، الملتقى الوطني الأول ، حول التراث الثقافي حفظ المعالم والقطاعات المحفوظة، قرص مضغوط، 2006.
[31] - نفسه.
[32] - حسان الجيلاني، صورة من التراث الجزائري (عمي العيد المداح)، مجلة الهلال المصرية(دفتر الأحوال الثقافة المصرية)، المؤسسة العربية الحديثة لطبع والنشر، العدد 115، القاهرة، 2007،ص 100.
[33] - ثريا التجاني، القصة الشعبية في منطقة وادي سوف، دراسة إجتماعية لغوية، رسالة ماجستير في الثقافة الشعبية، مركز الطباعة جامعة الجزائر، 1995، ص ص ، 120-121.
[34] - نفسه، ص 160.
[35] - مجلة القباب، مجلة ثقافية تصدر عن دار الثقافة بالوادي، الوادي أصول وأعراق، العدد 06، جوان 2007، ص ص 23-24.
[36] - مديرية الثقافة لولاية الوادي، الوادي تراث وحضارة ،الجزائر عاصمك للثقافة العربية، 2007.